موتيف الألم الذّاتي في شعر خليل مطران

د. خيرية عچرش*

وليد برحي**

(تاريخ الإيداع 7 / 10 / 2020. قبل للنشر في 20 / 12 / 2020)

□ ملخّص □

ظهر مصطلح الموتيف في الأوساط الثقافية الغربيّة و بعد ما تكاثرت عليه الدراسات في هذه الأوساط أخذ يتّسع له مجالا في الآداب الأمم الأخرى؛ له جذور وثيقة في ظاهرة التكرار، تلك الظاهرة التي نشأت في البلاغة العربية منذ قرونٍ؛ يعني الفكرة الرئيسة أو الموضوع و المفهوم المتكرّر الفعّال في العمل الأدبي. فظهوره في الإنتاج الأدبي يسلّط الضوء على الفكرة و يبلور عن الحافز و الباعث لدى الأديب في عمله الأدبي؛ و هذا ممّا ساعد النقّاد للكشف عن شفرة الأعمال الأدبيّة و الرؤية الأساسية لصاحبيها. فنظرا لحياة الشاعر **خليل مطران** و ما أنتابه من ألمٍ و حزنٍ على مدى محطّات حياته، خُلِقَ موتيف الحزن الذاتي في ديوانه معبّرا عن خوالجه و ما يجول في هواجسه لاإراديّا. و بهذا الأسلوب الحصريّ(الموتيف) تمعّنا في دراسة رؤية و فكرة الشاعر و ما عاناه خلال حياته من حزنٍ و ألمٍ و تأثيره في شعره، حيث طابت نفسّيته للإتجاه الرومانسي و مراودته الطبيعة ليشاركها آلامه. هذه الدراسة هدفت بمنهج وصفيّ _ تحليليّ للكشف عن موتيف الحزن الذاتي في أشعار الشاعر و تبيين جوّه و صراعه النفسيّ.

الكلمات المفتاحية: الموتيف، خليل مطران، الألم الذاتي، الرومانسية، الطبيعة

*أستاذ مشارک، فرع اللغة العربية وآدابها في جامعة شهيد تشمران أهواز، ايران. echresh.kh@scu.ac.ir

**ماجستير اللغة العربية و آدابها في جامعة شهيد تشمران أهواز، ايران

The Death of Self-Sadness in The Poetry of Khalil Mutran

Dr. Kherea Echresh [*]
Waleed Berji[**]

(Received 7 / 10 / 2020. Accepted 20 / 12 / 2020)

□ ABSTRACT □

The motif appeared in the western cultural circles, and after many studies have proliferated in these circles, it has expanded its scope in the literature of other nations. It has deep roots in the phenomenon of repetition, a phenomenon that originated in Arabic rhetoric for centuries; means the main idea or theme and recurring concept effective in literary work. His appearance in literary production sheds light on the idea and crystallizes the motivation and motivation of the writer in his literary work; this is what helped the critics to reveal the code of literary works and the basic vision of their owners. In view of the life of the poet khalil matrun, and the pain and sadness that he had over his life, the motif of self-sorrow was created in his office, expressing khawalji and what goes around in his concerns, not involuntarily. With this exclusive method (Motif), we studied the sadness and pain of the poet and the suffering he suffered during his life, and the effect he had on his poetry. This study aimed at a descriptive_ analytical method to reveal the motive of self-sadness in the poet`s poems and to show his atmosphere and psychological struggle.

[*] **Shahid Chamran University, Ahvaz,Iran.(echresh.kh@scu.ac.ir)**
[**]**Shahid Chamran University, Ahvaz,Iran.**

مقدمة

يعدّ الموتيف أسلوبا من الأساليب الأدبية الحصرية.حضي إهتماما واسعا من قبل الكّتاب والشعراء. يعبّرون من خلاله بصورة مرموزة متكررة عن أفكارهم الأساسية وخوالجهم النفسية في إنتاجهم الأدبي. اصل مفردة الموتيف فرنسية وقد استخدمت في إنتاجات شتّى منها: الخياطة والنحت و الرسم والتصوير. تعني الحافز والباعث الأساسي في الإنتاج.من ثمّ توغّلت في العلوم الأدبية تدلّي على الفكرة المتكررة أو اللفظ و الموضوع المتكرر و الحافز الأساسي للأعمال الأدبية .وهذا ممّا ساعد النقّاد عن كشف أساس الفكرة وكيفية تأثير الأديب من هواجسه من خلال هذا الأسلوب _أي الموتيف_ الغالب على إنتاج الأديب.

خليل مطران عاش متقلب الجغرافية و من بلد لبلد آخر فمرّ بأنواع التجارب، منه السياسية و الاجتماعية و الحب، حتى ضربه الدهر و أصابه بمرضٍ بأواخر حياته و أخذه يلوك به الألم و تركته حبيبته حيث نجد في هذه الموقف الزمني يستوحي على شعره موتيف الألم و الحزن فيجد أيامه أو أيام صباه و هواه المولعة بلوعة الحب لذلك قصدنا نسلّط الأضواء على هذا الجانب من أشعاره التي توحي عن الأم الذاتي بعيدا عن قصائده التي يرثي بها أو بالأحرى نسمّيها شعر المناسبات، حيث ربّما كان الحزن خارجيّا لم يكن هواجسيّا. وحدّدنا هذا العنوان لننأى عن إلتباسه بالحزن الشمولي العام الذي غزى ديوانه و ربما لم يكن من تحت الذات.فتمنهجنا بمنهج وصفي _ تحليلي نعثر عن آلام الشاعر الذاتية.

أسئلة البحث:

1_ كيف يستخدم أسلوب الموتيف في الآداب؟

2_ كيف وظّف خليل مطران موتيف الألم الذاتي في أشعاره؟

فرضيات البحث:

1_ يستخدم الموتيف في آثار الأدباء من خلال أزمة زمنية أو أخلاقية أو طبعية تلفت نظر الأديب خلال تلك الفرصة؛ حيث تستفز غريزة الشاعر أو الكاتب؛ فيسلط الأضواء على تلك الحقبة في آثاره بشكل متكررٍ ملحوظٍ يهزّ هواجس المتلقي من خلال ذلك التكرار.

2_ نظرا إلى حياة مطران و ما مرّ عليه أثناء مراحل حياته فنجده يتألم تارة من حبٍّ و مرّة عن مرض قد أصابه و طورا عن خسارة كبيرة حيث أبعدته عن ناسه، فهذه الآلام جعلت عواطفه تبوح عن ما يجول في هواجسه بلغةٍ شعريةٍ حيث نجد قصائده مرارا توحي عن حزن و ألم، و هذا تكرار الألم بحد ذاته يشكل موتيفا ملحوظا في ديوانه.

خلفية البحث:

خلال بحثنا حول الموتيف أعثرنا دراسات كثيرة؛ منها: دراسة **محمد تقوي والهام دهقان** الموسومة بـ«موتيف چيست وچگونه شكل می گيرد؟» قد نشرت هذه المقالة بمجلة «نقد أدبي» في جامعة تربيت مدرس(1388 ش). ودراستان **لرسول بلاوي** موسومتان بـ«موتيف إستدعاء الشخصيات التراثية في شعر يحيي السماوي»تم نشرها في مجلة الأدب العربي، العدد الأول(1393ش) و «موتيف النخلة في شعر يحيي السماوي» نشرت في مجلة الدراسات الأدبية، العدد76_78،(2012_2011م).

أما عن خليل مطران، غير ديوانه الذي يحتوي على ثلاثة مجلدات للطبعة الثانية و الثالثة، أجدنا كتب و دراسات شتّى؛ نذكر منها: كتاب «شاعر العصر الحديث» **لخليل الموسى** (1999م). وكتاب «خليل مطران شاعر الأقطار

العربية» **لجمال الدّين الرّمادي**(1972م). و«مغالطات في حياة مطران» **لخالد إبراهيم يوسف**(2006م). و «تقلد و تجديد» **لطه حسين**(2017م) و « محاضرات عن خليل مطران» **لمحمد مندور**(2017م). و «خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث» **لميشال جحا**(1981م)

تعريف الموتيف

نشأ مصطلح الموتيف في فرنسة وعاش بداية حياته عند الغربيين و من ثمّ توغّل تدريجيا في آداب الأمم الأخرى و أخذ حيّزا واسعا بشكله المتكامل عن مفهومه في الساحة النقدية الأدبية. «قد عرفوا جذر مفردة الموتيف في القرون الوسطى بالفعل اللاتينيMover واسم Motivus. وكلتا _ المفردتين اللاتينيتين_ تشيران_ لغويا_ إلى الحركة أو الدافع إلى الأمام و الإلحاح و الإثارة.(تقوي، محمد. 1388: 10)

تستخدم مفردة "الموتيف " في فنون و علوم مختلفة، منها الرسم، والنحت، والهندسة المعمارية، و الموسيقى، والحياكة و الخياطة و التصوير و الأدب. و الموتيف في الأدب يعني الفكرة الرئيسة أو الموضوع الذي يتكرر في العمل الأدبي، أو المفردة المتكررة أو الحافز و الباعث. و لا يخفى أن التكرار هو السمة الغالبة على الموتيف في الأعمال الفنية الأدبية.(بلاوي،رسول. 1393ش: 52) و تجدر الإشارة إلى أنه« لا يقوم فقط على مجرد تكرار اللفظة في السياق، الشعري، و إنما يقوم على ما تتركه هذه اللفظة من أثر انفعالي في نفس المتلقي، و بذلك فإنه يعكس جانبا من الموتيف النفسي و الإنفعالي.»(بلاوي، رسول. 2012_2011م: 67)

نظرا إلى ما درسنا أعلاه للموتيف، تمعّنا بأنه يبنى أساسه على التكرار؛ أن لم يكن هذا الحدث –أي التكرار– لم يكن موتيفا في النص.فهذا التكرار المتواتر الذي يُلفت انتباهنا عند الأدباء، يعيش بشكل روتيني في حياتهم .لذلك تأثر منه الأديب تأثرا وأخذ يكمن في أعماق كيانه و بالتالي ينمو بجسد ملموس وبصورة مرموزة في نصوصهم الفنية الأدبية. و قد أخذنا في هذه الدراسة نراود أشعار الشاعر العربي المعاصر خليل مطران و نعالجها من حيث توظيفه لموتيف الألم الذاتي في ديوانه الشعري، ترصيدا إلى ما عاش من خفقات و تألّم منها وثَمَّ ظهر بشكل عاطفيٍّ متكررٍ فنيٍّ، و بلغة شعرية من أعماق هواجسه النفسية.

حياة خليل مطران

ولد خليل مطران سنة 1872م في مدينة بعلبک بالبنان، وترعرع في نفس المدينة ثُمّ «أرسله والده إلى مدينة زحلة ليتعلم القراءة والكتابة. وانتقل بعد إلى مدينة بيروت و دخل المدرسة البطريركية ليتعلم العربية و آدابها عند الشيخ ابراهيم اليازجي،(شكيب أنصاري، محمود، 1394 ش: 144) وفي في هذه الكلية تخرّج مطرن ابن السبّعة عشر ربيعا، وهو يتقن العربية والفرنسيّة. وهذا ما أهّله ليكون بعد تخرجه و خلال عام، مدرّسا من مدرّسي المدرسة التي شهد جوّها الأدبي نمو ملكته الشعرية، واندفاعه إلى نظم الشعر. (إبراهيم يوسف، خالد،2006، 41) وبعد تخرّج الخليل في(هذه الكلية) بدأ ينظم ضدالسلطة الكبرى و الاستبداد الحميدي (احتلال العثماني آنذاک)... و اتّهم أخيرا بتهمة العمل للثورة، وقبضت عليه السلطات العثمانية، غير أنها أخلت سبيله بعد ذلک، وظلت تشدد الخناق عليه بضروب الوسائل ومختلف الذرائع... و أخيرا لم يجد خليل مطران الشاب الثائر مناصا من الرحيل عن بلاده و التوجه صوب باريس(سنة 1890)، لعله يجد فيها الأمن الدعة، و لكن السلطات التركية ظلت تطارده أينما سار، فدسّت له لدى الحكومة الفرنسية، و لا شک أن الفترة التي قضاها خليل مطران في باريس قد مكّنته من الرجوع إلى الآداب الفرنسية عن قرب، والاطلاع على التيارات الأدبية المعاصرة.(الرّمادي، جمال الدّين، 1972م:18و19) ومن ثمّ انتقل إلى مصر ونزل الإسكندرية، فهناک قد طالت أقامته حتى مماته، وبدأت حياته الثانية في موطنه الثاني _مصر_، حيث

اشتغل بالصحافة و أصدر بعد ذلک "مجلة المصرية" نفسه وثمّ جريدة"الجوائب المصرية " و هي جريدة يومية. وهذا مما جعل الدكتور طه حسين يقول:«فإذا نظرنا إلى المولد و إلى النشأة الأولى فخليل مطران لبناني، ما في ذلک شک، و إذا نظرنا إلى إنه قد أنفق أكثر حياته في مصر وتأثر بأحداثها وتأثر بالأحداث العربية المختلفة من طريق التأثير المصري العام فمطران مصري.»(حسين طه، 2017: 63) ما لا سبيل إلى نكرانه، أن الطبيعة اللبنانية كان لها الأثر البالغ في نفس مطران وفي شعوره وشعره. فتلک الجبال الشامخة المعمّمة بالثلوج البيضاء النّاصعة ... وتلک الأنهار و الجداول الحالمة الملتوية عبر الأغوار البعيدة، من السّفوح المتدرّجة حتّى الشطوط الذهبية المترامية عند أقدام البحر الأزرق ...، ما لا شک فيه، إن هذه المناظر الخلابة الرّافعة قد بالغت في تأثيرها بشاعرنا، حتى باتت الطبيعة كائنا حيّا يوحي ويتكلّم، يحسّ ويتألّم، يحبّ و يعشق... .(إبراهيم يوسف، خالد، 2006: 49) ولذلک نرى أغلب ديوان شعره يزهو بصبغة الطبيعة و هذا ممّا جعله يتّجه نحو المذهب الرومانسي أو بالأحرى رأى هذا المذهب أكثر تناسبا مع إحساسه و ذاته ليعبر عن خوالج نفسه. وهذا ما ذكر الدكتور جمال الدين الرمادي في هذا المجال قائلا: «يظهر أن مطران أرتاح إلى المذهب الرومانسي في الشعر الغربي و فضّله على غيره من المذاهب الأدبية الأخرى، و آية ذلک ما نجده في شعر من وجدانية مسرفة و تعلق بالطبيعة و هيام بها.» (الرّمادي، جمال الدّين، 1972: 22)

توظيف الشاعر للألم الذاتي في اشعاره

دائما الإنسان بحياته الروتينة المحورية ينحدر في بعض الأحيان بمضاجع اللحظات و التجارب و ما نسميها المغامرات الحياتية وانعكاس هذه التجارب تجعل تأثيرا انفعاليا في نفس صاحبها و كل فصيلة من البشر يتمظهرها على شاكلته العقلية، وها هنا الشعراء، مرآتهم الأولى هي ذوقهم و فنّهم ببيان ما في خوالجهم النفسية بلغة شعرية . لذلک أخترنا في هذي دراستنا التبلورية، الشاعر المعاصر شاعر الأقطار العربية خليل مطران لنظهر من خلال موتيف الألم الذي أنتاب أشعاره، أسلوبه وتجربته الروتينية و تأثيرها على تجربته الشعرية.

و أسلوب الموتيف في الواقع يعرّفنا على رؤية الأديب من حيث تسلّط مفهوم بشكل ملحوظ على آثاره. أخذنا هذه الدراسة على منهج توصيفي_ تحليلي. و الجدير بالذكر أن اختيار هذا العنوان و خصصنانه بمفردة «الذّاتي» لنفصل عن ألم ومتألّمات الشاعر الكلّية التي غزت ديوان شعره ، الذي يشمل رثاءه أو مايسموه الشعر المناسبات .

الألم و الحزن الذي أنتاب شاعرنا هو نجده تارة عن حبٍ و مرة عن مرض أو عن خسائر اقتصادية حيث جعلته حزينا وأليما ذاتيّا. وشاعرنا كما يبدو سلک مسلک الرومانسية عن ما يظهره من لجوئه تجاه الطبيعة خلال استنثار غريزته الشعرية و هذا أحد ثياب الرمانسيين. وممّا يظهر في قصيدة "المساء" حيث يصور الشاعر آلامه النفسية والجسديّة_ يجتمع ألم حبّه و مرضه_ بصورة كاملة الأبعاد الجماليّة من حيث الأسلوب و التأثير المحزن من حيث الألم. فيقول:

دَاءٌ أَلَمَّ فَخِلـــــتُ فيهِ شِـــفائِي مِن صَبوَتِي فَتَضَـــاعَفَت بُرَحَـــائِي
يَا لَلضَّعيفَينِ! اســـتَبَدَّا بِي وَ مَا فِي الظُّلمِ مِثلُ تَحَكُّـــمِ الضُّـــعَفَاءِ
قَلبٌ أَذَابَتهُ الصَّبَـــــابَةُ وَ الجَوَى وَ غِلَالَة رَثَّت مِـــــــــنِ الأَدوَاءِ
وَ الرُّوحُ بينَهُـــــــــمَا نَسِيمُ تَنَهُّدٍ فِي حَالَيَ النَّصوِيـــبِ و الصُّعَدَاءِ
وَ العَقلُ كَالمِصـــبَاحِ يَغشَي نُورَهُ كَدَرِي وَ يُضعِفُهُ نُضُـــوبُ دِمَائِي...
عُمرَينِ فِيکِ أَضَعتُ لَو أَنصَفتِنِي لَم يَجدُرَا بِتَأَسُّفِي و بُـــــــكَائِي
يَا كَوكَباً مَن يَهتَدي بِضِـــــيائِهِ يَهدِيهِ طَالِعُ ضِـــــــــلَّةٍ وَ رِيَاءِ

(مطران، خليل. 1949م. ط3. ج1: 17)

استهل الشاعر قصيدته(يتحدث) فيها عن مرضه الذي توهّم أنه قد يصرفه عن حبّه، ولكن المفاجأة أنّ مرضه و حبّه اجتمعا عليه، فصار مضنى الجسد، معذّب الفؤاد، كدر العقل و لذلك يبث شكواه لحبيبته ... و يطلعها عمّا خلّفت فيه من هزال و سقم، فقد أضاع عمره في حبّها،...(و في الواقع) القصيدة رسالة أو خطاب من الشاعر إلى حبيبته، وهي تحمل في طيّاتها آلاما ثلاثة: ألم المرض الذي أصبح الشاعر رهينا له، و هو ألم سطحي بالقياس إلى ألم آخر الذي يعانيه الشاعر من هجران الحبيبة له، و هو الألم المحوريّ الروحيّ، و ينتج عن ذلك ألم ثالث هو غربة الشاعر واغترابه و وحدته أو عزلته، و قد اجتمعت هذه الآلام و الأحزان على شاعرنا لتنال منه.(الموسى، خليل.1999م: 155 و 156)

و في مقطع آخر من هذه القصيدة، ينحو الشاعر تجاه البحر و يشكو له ما فيه من ألم متكثّف لأنّه لم يجد الإنسان الذي يواسيه لحزنه و ألمه العظيم لذلك يلجئ إلى الطبيعة و لاسيّما البحر من حيث عظمته و عمقه لربما سيتوعّب ما يحمل من ثقلٍ لكن يجد البحر لم يكن أقل منه ضيقا و حزنا، لذلك يندمجا بالناحية الإستدراكية و يشكيا لبعض همومهما. فيقول:

عَبَث طَوَافِي في الـــــبِلادِ و عِلَّةٌ ... في عِلَّةٍ مَنفَايَ لِاستشـــفَاءِ
مُتَفَرِّدٌ بِصَـــــــــــبَابَتِي، مُـــتَفَرِّدٌ ... بِكَآبَتِي مُتَفَرِّدٌ بِعَـــــــنَائِي
شَاكٍ إلى البَحرِ اضطِرَابَ خَوَاطِرِي ... فَيُجيبُنِي بِرِيَاحِهِ الهَوجَـــاءِ
ثَاوٍ عَلَى صَخرٍ أَصَـــمَّ وَ لَيتَ لِي ... قَلباً كَهذِي الصَّخرَةِ الصَّـمَّاءِ
يَنتَابُهَا مَوجٌ كَمَوجِ مَـــــــــكَارِهِي ... وَيَفُتُّها كالسُّقمِ فِي أَعضَـــائِي
وَ البَحرُ خَفَّاقُ الجَـــــوانِبِ ضَائِقٌ ... كَمَداً كصَدرِي سَاعَةَ الإمسَاءِ

(مطران، خليل. 1949م. ط3. ج1: 18)

إن نظرة مطران إلى الطبيعة نظرة جديدة بمفهوم حديث، فإنّ الشعر العربي مليء بوصف الطبيعة. غير أن مطران لا ينظر إلى الطبيعة نظرة فوتوغرافية عابرة يصف فيها الأشياء وصفا حسيّا بحيث تبقى بعيدة عن نفسه، و إنما ينظر إليها من خلال نفسه و ينظر إلى كائناتها و كأنها كائنات حيّة فيجسّدها و يجعل لها عقلاً و قلباً و روحاً، و وراء كل ذلك اعتنق مطران فلسفة تربط بين عوالم الطبيعة وبينه هي الحب.(جحا، ميشال. 1981م: 125) فيندمج الشاعر بالطبيعة لحدٍّ متكامل حتى أعطى البحر روحا إنسانيّة عملاقة حيث يسمع و يتأثّر و يجيبه فهو أخلق صورة ثنائية عن ألم حبّه و ألم جسده التي يشكي، لذلك هناك يتفاعل الصراع النفسي و يدفق القارئ بدفقة تأثيرية شعورية؛ و استطاع الشاعر يتوفّق بصورته الجماليّة عندما جعل التشخيص يأخذ دوره المشاركي بهذا المقطع؛ فأراد الشاعر يجمع عظمت البحر و حزنه و ألمه ليتشابها بالتضخّم. لذلك يذكر هنا الدكتور خليل الموسى قائلا:« إنّ الإغتراب النفسي في(هذا) المقطع يسلمنا إلى لوحة الرمز الشفاف أو الغروب النفسي... و يؤدي الصراع الداخلي إلى حلول الشاعر في الطبيعة و حلولها فيه، فيخلع و جدانه عليها، و يقصّ على البحر حزنه و ألمه و يعلو إيقاع الصراع النفسي إلى أن نصل إلى الغروب النفسي الدامي الذي يودّع الحياة تاركاً لليل فرصة لسلطانه، و كأن مشهد الغروب دفقة طبيعية قبل السكون الأخير، لينحدر الإيقاع بعد ذلك إلى النهاية مع خاتمة القصيدة التي هي أشبه بإيقاق جنائزي تشترك فيه الطبيعة والإنسان.»(موسى، خليل، 1999م: 160و 170) فهكذا تختم القصيدة بنظرة مأساوية حيث يرنو الشاعر الشمس وهي تختفي تدريجيا نحو الأفق، مغتربة كحالته الصحية حيث يشتدّ عليه الألم و يدنو أجله. فيقول:

يا لَلغُرُوبِ وَمَا بِهِ مِن عِـــــبرَةٍ لِلمُستَهَامِ! وَ عِبرَةٍ لِلرَّائِـــــي!!
أوَلَيس نَزعاً لِلنَّهَارِ و صَـــــرعَةً لِلشَّمسِ بَينَ مَآتِمِ الأَضـــــوَاءِ؟
أوَلَيسَ طَمساً لِليَقـــــينِ وَ مَبعَثاً لِلشَّكِّ بَينَ غَلَائِلِ الظَّلمَـــاءِ؟...
وَ الدَّمعُ مِن جَفنِي يَسِيلُ مُشَعشَعاً بِسَنَى الشُّعاعِ الغَـارِبِ المُتَرَائِي
وَ الشَّمسُ فِي شَفَقٍ يَسيلُ نُضَـارُهَ فَوقَ العَقيقِ عَلَى ذُرَى سَـودَاءِ
فَكَأَنَّ آخِرَ دَمعَةٍ لِلـــــــكَونِ قَد مُزِجَت بِآخِرِ أَدمُعِي لِـــرِثَائِي
وَ كَأَنَّنِي آنَستُ يَـــــــومِيَ زَائِلاً فَرَأيتُ فِي المِرآةِ كَيفَ مَـسَائِي

(مطران، خليل1949م. ط3. ج1: 19)

أستطاع الشاعر يجعل الأصيل _الذي أتى بعد النهار المزهر و الحيويّة حيث يأخذه تجاه عتمة المساء و مايخفيه من هويل_ رمزا للإنزواء و إنحطاط العمر و اليأس بالحياة. و«وحدّ بين الطبيعة ...و حالة الوداع لحبيبته، مشبها ما يعتمل في قلبه و صدره و ما يحدث عند غروب الشمس من معانات بالسحابة التي تصطبغ بلون الشفق الدامي، و يمتزج الدمع بأشعة الغروب حيث تغيم العيون،... وكأنّ الوجود يرسل الدمع الأخيرة لتمتزج بدموعه أسفا عليه و رثاء له و يبدو زوال الشمس صورة لفنائه و زواله»(بشيرعباس، بشير. 2009م: 125) و هذا ما يبلور عن نفسيّة الشاعر ووحدته خلال مواجهة الآلام الذاتية التي أصيب بها حيث جعلت القصيدة بأكملها توحي عن خفاقٍ نفسيٍّ عظيم. حيث يذكر الدكتور جمال الدين الرّمادي في هذه المرة قائلا:«و النزعة الوجدانية واضحة جلية في القصيدة، و الشاعر يعبر فيها عن ألمه النفسي... و هي تجربة ذاتية كاملة لنفسه تمتزج فيها آلام الشاعر بأحلامه و تأملاته. كما أن الشاعر يمزج الطبيعة بنفسه و لا يرى فيها إلا صورا من ألمه و حزنه»(الرّمادي، جمال الدّين.1972: 119)

فدائما الشاعر الرومانسي هكذا يكون إتجاهه عندما يُصاب بسقم و همٍّ، فخير ملجأ له الطبيعة و عناصرها، حيث يتنفّر من لجوئه نحو البشر. وهكذا نرى مطران في قصيدة(الأسد الباكي) يحزن و يتألّم من ضربة دهرٍ أصابته فجعلت حياته تنحو تجاه آخر حيث خسر ما يملك من مالٍ خلال صفقة تجارية؛ فأخذ يبعد عن الواشين و الشامتين لا سيّما عن هؤلاء الذين ابتعدوا عنه خلال خسارته و لم يقفوا معه، نحو منطقة "عين شمس" حيث يستنشق الهواء منفردا يتناسى ما أصابه من ألم الخسارتة التجارية و ألم الأصدقاء الذين لم يوفوا بوقت ضيقه؛ هذا من جهة و من ناحية أخرى نجد« في هذه القصيدة أيضا تلمَس ما لمسناه في القصيدة السابقة: خيالٌ يثير العاطفة ويخلع على الطبيعة الخارجية ما في نفس الشاعر من معانٍ و ألوان عاطفية قاتمة، ثم فكٌّ و عَقلٌ و إرادة تَكبَح جمال العاطفة، حتى ليعترف الشاعر نفسه بأنه يُظهِر غير ما يبطن؛ فالحزن ملء جوانحه ولكنه يداريه ببشر وإيناس» (مندور، محمد. 2107: 22). فيقول:

دَعَوتُكَ أَستَشفِي إِلَيكَ فَوَافِـــــني عَلَـــى غَيرِ عِلمٍ مِنكَ أَنَّكِ لِي آسِي
فَإِن تَرَنِي وَ الحُزنُ مِلءُ جَوانِـــحِي أُدَارِيهِ فَلَيَغرُرك بِشرِي و إِينَاسِـــــي
وَكَم فِي فُؤَادِي مِن جِـــــراحٍ ثَخِينَةٍ يُحَجِّبُهَا بُردَاىَ عَن أَعيُنِ النَّـــــاسِ
إِلى عَينِ شَمسٍ قد لَجَأتُ وَ حَاجَتِي طَلَاقَةُ جَوٍّ لَم يُدَنَّس بِأَرجَـــــــاسِ
أُسَرِّي هُمُومِي بِانـــــــفِرَادِي آمِناً مَكَايدَ وَاشٍ أو نمَائِمَ دَسَّـــــــــاسِ

(مطران، خليل.1949م. ط3. ج2: 267)

في الواقع على رغم إنبعاث القصيدة من تلك الهزيمة الإقتصادية. لكن لم تخلُ عن نكهة المجتمع و نفاقه من هؤلاء الأناس الذين كانوا أصدقاءه قبل الخسارة. فالقصيدة بالبداية موسومة بـ"ساعة يأس " «و هي نفخة و جدانية رقيقة، تبرز فيها الذات المتألمة المنهزمة من خلال الذات الناطقة»(الموسى، الخليل.1999م: 146) تشير عن أندلاع يأس و ألم تلك اللحظة التي جعلته حزينا فشبّه نفسه بأسد ضاقت عليه الدنيا فبكى؛ على رغم أن الأسد في الأدب يرنو عن الشجاعة و البطولة لكن في قصيدة مطران تجلّى بصورة إنعكاسية فنجد الأسد حزينا، لهذا لفت إنتباه القراء و عرفت هذه القصيدة بـ"الأسد الباكي" حيث نجده في المقطع الأخير من هذه القصيدة يقول:

يَكَادُ يَبُث المَـــــجدُ ما لَا أَبُثهُ مِنَ السَّقمِ العَوَّادِ وَ السَّـــــأَمِ الرَّاسِي
أنَا الأَلَمُ السَّاجِي لِبُـــعدِ مَزافِرِي أنَا الأَمَل الدَّاجِي وَلَم يَخــبُ نِبرَاسِي
أنَا الأَسَد البَاكِي أنَا جَبَل الأَسَى أنَا الرَّمسُ يَمشِي دَامِياً فَوقَ أَرمَاسِ

(مطران، خليل. 1949م. ط3. ج2: 269)

الألم الذي عاناه مطران في قصيدة" الأسد الباكي" لم يكن نتيجة هزيمة مالية، مهما تكون سبب لنظم هذه القصيدة؛ لكن ماوراء هذا السبب الظاهري عوامل أخرى، فأهمها إحساس الشاعر بإنتهاك ذاته وشخصيّته من قبل قوانين المجتمع... فيوصف همّه و ألمه العميق و قلبه الممتلئ من الجروح الكثيفة.(حريرچي، فيروز. 1389ش: 81)

فأين ما أتّجه مطران يراود الطبيعة بعواطفه، فبوسعنا القول: أنّه متأثر من بيئة لبنان الخلابة و مسقط نشأته مهما أبتعد، فيتعايش فيها بروح عاطفية و خيال مرتوي منها.«و هذا الجانب عند مطران يفوح على قارئه بشذى وجداني ينفذ إلى قلبه و أعماقه، و هو يمد عين بصيرته فيه إلى عناصر الطبيعة... فإذا هو يحيلها كائنات حية، تنعكس عليها أحزانه و آلامه و حبه و عواطفه و نوازعه»(محمد عويضة، كامل محمد.1994م: 22) فهو لم يتخلّى عن عناصر الطبيعة عندما يحلّ به الهمّ والحزن فلا يجعل الإنسان ملاذا له؛ لأنّ ما يصيبه من شدائد، يرى مطران سببها البشر لاسيما الأقربون من أصدقاء أو حبّه. ومن أروع قصائده في مراودته لعناصر الطبيعة قصيدة" مشاكاة بيني و بين النجم" و هو يسجّل« فيها آلامه المبرحة التي يكابدها في سبيل الحب، و سأل النجم أن يعذره في هذا الهوى. و قد مزج مطران في هذه القصيدة بين فتنة الحبيب و محاسن الطبيعة»(الرمادي، جمال الدين.1972م: 120). فينتاب شاعرنا سهر الحب و همومه في تلك الليلة، فيرنو إلى السماء بمنظار شاعري مرهف مؤلم؛ يجد النّجم مازال سهران مثله و يشكو عن حبيبته الشمس التي لم يستطع الوصول إليها فيراه الشاعر يشبه علّته من منأ الحبيبة و يأخذان يشكيا لبعضهم عن ما يجول في هواجسهما من حسرة اللقاء. فيقول:

أَرَى مِثلَ سُهدِي في الكَوكبِ أَحَلَّ بِهِ مِثلُ ما حَـــلَّ بِي؟
يَهِمُ هُيامِـــــــيَ مِن وَجدِهِ وَ يَهرُبُ مِن مَهدِهِ مَـــهرَبي...
فَيَا لَكَ مِن صَامِـــتٍ نَاطِقٍ وَ يَا لَكَ مِن مُعـجِمٍ مُعرِبِ
أَنِيسٍ عَلَى مَا بِهِ مِـــن أَسىً شَجِيٍّ التَّبَسُّمِ مُـــــستَعذَبِ
مَشُوقٍ إلى الشَّمـــسِ طَلَّابُها مُجِدٌّ عَلَى شِقَّةِ المَـــــطلبِ...
وَ بِي مِثلُ مَا بِكَ مِن شَاغِلٍ وَلِي مِثلُ مَا لَـكَ مِن مَأرَبِ
فَتَاةٌ كَصَـــــــوغِ الضِّياءِ إلَيـ هَاتَنَاهَت مُنَى قَلبِيَ المُوصَبِ
فَإن كُنتَ يَا نَجمُ طَـــالَعتَهَا وَ قَد سَفَرَت لَـــكَ فِي مَرقَبِ

(مطران، خليل. 1949م. ط3. ج1: 131)

فيواكب مطران النّجم بسهره و يدفقه روحا حيّة و يصنع التشخيص و التأثير الثنائي من الحب، حيث يعتزل عن ما حواليه و يلجئ إلى ذلک النجم في الليل و يأخذ و يعطي ليخفض عن ما في داخله من ألم، و هذا التعامل وتنقّل الفضاءات مع الطبيعة يوحي عن عقليّة الشاعر و إنتمائه للرومانسية. لأنّ خيال الشاعر الرومانسي« يعثر على كل صور الألفاظ في الطبيعة، و هو يحاكيها في نظمه، ولكنه يلجأ إلى تنظيم هذه الصورة في وحدة متناسقة...ولا ينقل نقلا مباشراً كما هو في الطبيعة، و لكنه يختار منها ما يناسب شعوره و عاطفته و يصهر ها عبر إحساسه لتبدو شيئا جديدا »(صايل حمدان، محمد. 1991م: 55) كما فعل مطران في هذه القصيدة و منظاره للنجم مما يتناسق مع شعوره و إحساسه.

فنرى في هذه القصيدة وحدة الصورة و الإحساس بالحزن وتأجج العاطفة.... (و) تجلي الوحدة العضويّة فيها من خلال هيمنة إحساس واحد و رؤية نفسيّة واحدة على القصيدة كلها و هو بثّ الشكوى للنجم الذي يرى فيه الرفيق و الصديق الوفي، و هذه القصيدة تطبيق حي لمفهوم الوحدة العضويّة عند الشاعر الرومانسي فقد استعان مطران بالطبيعة لتوضيح صورة الألم و العشق و السهد الذي يعيشه، فقد امتزجت مشاعره الإنسانيّة مع الطبيعة في هذه القصيدة فهو يرى(النجم) شخصا يشاركه عواطفه و مشاعره، ومن هذا التوحد بين الصور الشعريّة و الطبيعة تظهر الوحدة العضويّة التي تربط القصيدة كلها، فالصورة الشعرية هي الأساس في إظهار الوحدة العضويّة، فإذا اضطربت الصورة الشعرية أدّى اضطرابها إلى تفكّک في الوحدة العضويّة.(خليف جاسم، طالب. 2015م: 192)

وبقى الحب وعواقبه المريرة و الأليمة تراود مطران ومنه: الحب العظيم الذي غيّر حياة الشاعر، تلک التجربة العشقية التي جعلته أعزب لآخر عمره. حيث نظم ملحمة شعرية طويلة بخمسة وعشرين قطعة، تحت عنوان " حكاية عاشقين" و جعل لها مكانا خاصا في ديوانه، فكانت هذه القصيدة الطويلة مرآة لسعادتة القصيرة و تعاسته و آلامه التي تحمّلها على مدى حياته.« وهذه المآسي التي... تفجر في قلب الشاعر ينابيع الحزن و الرحمة و تجلو أمام وجدانه ما في الحياة من عبر و ما في النفس البشرية من متناقضات، فيعبّر عن ذلک كله بروح من التعاطف (الأليم)... بتلک النهاية الفاجعة التي طالما وجد الرومانسيون فيها مجالا للتعبير عن إحساسهم بتحول الحياة و مآل الانسان بكل تجاربه و ذكرياته و أمانيه »(القط، عبد القادر. 1988م: 98) . فأحب فتاة جميلة و تعمّق في حبّها كثيرا؛ مما يبدوا من أشعاره و سيرة حياته. حيث كان يخشى من تفشي هذا الحب بين معارفه و الأصدقاء و الوشاة، حرصا عليها و كرامتها و علاقته بها. لذلک يقول:

كَتمتُ هواكِ دهراً لا لخوفا و ما أنا من يُروعّه الحِمامُ

ولكني حَرَصت عليكِ منهُم ولو أودَى بمُهجَتي الغَرَامُ

(مطران، خليل. 1949م. ط2. ج1: 189)

لذلک كان شاعرنا يسمّي معشوقته بأسماء متعددة في شعره لكي يخفي اسم هواه الحقيقي من الناس. مثلا: ليلى، هند، سعاد و غيرها من هذه الأسماء و هذه كلها وردت في الأدب العربي رمزا إلى الحب العذري و الموحّد، إشارة إلى سفراء الحبّ الموحّد و العفيف الصادق كقيس بن الملوّح و عبّاس بن الأحنف و غيرهما. لكن في الواقع« ليست وحدانيّة هذا الغرام كلّ ما فيه من عناصر البقاء، و إنّما أضيف إليها عنصر يتصل (و) الموقف الاجتماعي الذي اضطرّ معه العاشق إلى (الكتمان)، و أخذ نفسه بالشدّة لردعها عن البوح، و هذا ما كان يخلق في سريرته ضربا من التوتر العنيف»(قادري، فاطمة. 1393ش: 58). فيقول:

يَا مُنَى القَلبِ وَ نُورَ العَ ينِ مُذ كُنتُ وَ كُـــنتِ
لَم أَشَأ أن يَـــــعلَمَ النَّا سُ بِمَا صُنتُ وَ صُنتِ
وَلِمَا حَـــاذَرتُ مِن فِط نَتِهِم فِـــينَا فَطِـــنتِ
إنَّ لَيلَايَ و هِنـــــدِي وَ سُعادِي مَن ظَنَنـــتِ
تَكثُرُ الأَسمَـــــــاءُ لَ كِنَّ المُسَمَّى هُوَ أنـــتِ

(مطران، خليل. 1948م. ط3. ج1: 264)

وهذا التكتّم و المداورة في هذه القطعة الشعرية، و الإحساس الذي يُلمس من هذه الأبيات يبوح عن شدّة حب شاعرنا و هيامه بها. «و كانت صاحبة الخليل فتاة ذات حسن و جمال، فقوامها لايعدله قوام. وفي عينيها سحر بابليّ لا يدري الناظر إليه أ هو ماء أم ضرام، و في أهدابها فتور يهيج القلب و يثير النفس و يبعث بالسهام إلى شغاف القلوب و أعماق الصدور. و قد ظل مطران يخفيه فترة طويلة حتى أشقاه و أتعبه و أسلمه للسقام»(الرمادي، جمال الدين. 1972م: 95)

و قسّم خليل مطران هذه الملحمة الشعرية (حكاية عاشقين)_ نظرا إلى قصة حبّه و ما أنتاب من هذا الحبّ الذي أستغرق ستّ سنوات من 1897م حتّى 1903م و تأثيره على حياته بعد وفاة الحبيبة ، و حازت هذه القصيدة الطويلة في ديوانه سبع و ثلاثين صفحة،_ «بفصلين الفصل الأول: سعادة الحب، و قد وصف من خلاله بداية حبه و لقاءاته بها و أيام سعادته معها، أما الفصل الثاني: شقاء الحب، و قد عبّر من خلاله عن شقائه في الحب و تعاسته بعد وفاة المحبوبة مغادرة عالمنا إلى العالم الآخر »(عبدالله البعول، إبراهيم. 2011م: 74)

و بدأ شقاء مطران و آلامه عندما لم يلبث كتمان هذا الحب كثيرا و تعمل الوشاة شيئا فشيئا بين المحبَّين حتّى وجدت على حبيبها و جفته و سافرت إلى النمسا؛ فما إن طال مكثها هناك حتّى قلق مطران و حزن و إزداد شوقا إليها حيث لايطيق صبر فراقها أكثر؛ فإذ يصل صديق له من النمسا؛ و يأتي بخبرٍ سيئ مرير لذلك العاشق، بأن حبيبته أصيبت بمرض العضال_ الذي توفيت والدتها بسببه_ فأضطرب و هاج هيامه و فزع من صاعقة الخبر، فهمَّ للسفر إلى النمسا لكن منعوه أصدقاؤه بأن إذا رأته يستفحل عليها مرضها أو يُعدى إذا دنا منها. لكن مطران لا يبالي لهذا الكلام و الموت بالعدوى و لم يرَ بقاءه وفاءً للحب و يودّ بأن موتهم و إحياءهم معا. فيقول:

سَأَمضِي إلَيها وَ ليُصِبنِي نَصِيبُـــهَا وَلا يَرثِنِي صَحبٌ وَلَا يَبكِ أَقرِبَا
لِئِن كَانَ مَوتٌ فِي مُقَبَّلِ ثَغرِهَـــــا سَأَرشُفُهُ مِنهُ شَهِيًّا مُـــــطَيَّبَا
خَلِقنَا لِكَي نَحيَى وَ نَقضِيَ في الهَوَى أَلِفَينِ يأبَـــى الحُبُّ أَن نَتَشَعَّبَا
فَإن ســـــــاءَنا دَهـــرٌ أَثِيمٌ بِفُرقَةٍ فزِعنَا إلى قَبرٍ رَحـــــــيمٍ فَقَرَّبَا
وَ أَحبِب بِهذا الوَصلِ بَـــعدَ انفِصالِنا وَيا مَوتُ أنتَ المُستَغَاثُ فَمرحَبَا

(مطران، خليل. 1949م. ط2. ج1: 207)

فأشتدّ الحزن في هواجس مطران و لم تأخذه راحة لبُعد حبيبته و مرضها الخطير. و مهما حاول على السفر لدنو هواه، منعوه أصدقاءه و أرادوا منه يتعقّل و يصبر قليلا ليرى كيف تسير الأمور ربما تشفى من مرضها و ترجع له بخيرٍ؛ وبقى مطران يتلقّف أخبارها ملهوفا. و أخذ المرض يشتدّ يوما بعد يوم و تسوء حالتها شيئا فشيئا؛ فإذا يصل خبر وفاتها و يفزع مطران و يرهبه هذا الخبر حيث طوي الخليل على نفسه و بكاها كثيرا و يكتب أشعاره محمّلات بالحزن العميق «وظلّ مخلصا لذكراها... (لآخر حياته) دون زواج من امرأة أخرى، و دون دخول تجربة حب أخرى، و ظلت

ذكراها حية في فؤاده و في شعره، وبعد أربعين عاما من وفاتها... سأله(صحفيّ)، هل عرفت الحبّ حقّا، فأجابه، نعم عرفته لبعض الوقت و لكنني بكيته طوال الوقت»(درويش، أحمد. 2010م: 88). حيث لم نجد مطران بعد هذا الحب و عواقبه المريرة سعيدا، فدائما كان يتخيّلها معه و في كل مكان يراها، و بقى وحيدا منعزلا لصراعاته النفسية. فيقول في آخر قطعة من هذه الملحمة الشعرية الرمانسية الحزينة التي نلمس من خلالها ما يجول في جوارح و هواجس الشاعر المفعمة بالألم:

سُرِرتُ فِي العُمرِ مَرَّه وَكُنتِ أَنتِ اَلمَـــــسَّرَه
كَانَت حَيَاتِيَ رَوضــاً وَكُنتِ فِي الرَّوضِ نَضرَه
وَكَانَ غُصناً شَبَــابِي وَكُنتِ فِي الغُصــنِ زَهرَه
وَكَانَ فِكرِي سَمَـــاءَ وَكَانَ حُبُّكِ فَـــــجرَه
وَكَانَ حَسنُكِ يُوحِـي إِلَى يَرَاعِيَ سِـــــــرَّه...
قَد كَانَ هَذَا وَلَكِـــن مَضَى وَأَخلَفَ حَـــــسرَه
فَبِتُّ لَا شَـــيءَ إِلَّا حَالَينِ: ذِكرَى وَ عِبـــرَه

(مطران، خليل.1949م.ط2 ج1.: 222)

" فحكاية عاشقين" إذن فاجعة كان الخليل بطلها و قد أصابته من حياته في الصميم لا حادثة تتبعها ليكون فيها ترجمان سواه.... (فنجد) صدق الشعور في قصائد الحكاية، وتنوع البحور و القوافي وفقا لاختلاف أزمنة النظم و طبقا لتباين أسبابه، و إبدال الشاعر اسم العاشقين بضمير المتكلم... لصرف الظنون عن حبيبته.(جحا، ميشال. 1981م: 87) و هكذا موتيف الحزن يتدفّق في أشعار مطران بصورة لا شعورية لتكابده الآلام والأحزان التي تنتابه من خلال مأساة الحياة، و هذه القصيدة الطويلة خير مثال إلى ما عاشه مطران من شقاوة و فجيعة مرّة من هذا الحبّ المبرح لهواجسه و تناسقه والإتجاه الرمانسي.

لم تكن فجوة الحب و المرض العاملين الوحيدين الذَين يشكوه مطران بل زادته آلام أخرى بهذه الحياة المتشائمة التي أنصبت على مطران سهامها؛ أين ما أتجه يواجهه الألم في شارع الحياة. فنجد أغلب قصائده تشكو الحزن وتحتلّ مجالا واسعا في ديوانه. فتعكس صوراً مرهفة عن ذلك الإحساس المهموم، بصورة جديدة تختلف عن ما عاناه الشعر في عصر الإنحطاط من تذمّر و زركشة لفظية. لأن شاعرنا كان من روّاد المجدّدين، بعد تلك الحقبة المنحطّة للأدب و لا سيّما الشعر. فدائما شعره ذات قوة و عمق بموضوه و إحساسه و «قوة تصوره و سموّ معانيه وحسن أسلوبه و بلاغة إنشائه. (حيث) لو علمت كيف ينظم ... لبلغ بكَ العجب إلى الدهشة. فقد نظم قصيدته " فتاة الجبل الأسود" و هو يعاني الشدة من ألم في معدته، و قصيدة " الوفاء" و الحمى تسري مع دمه في عروقه. و قصيدة " العتاب" و هو لم يذق الكرى من ليلتين، و قصيدة " المساء" و هو في أشد حالات السقم. و قصيدة " الوردة و الزنبقة" و هو في معظم ساعات غمّه و اكتئابه، وقد نظم القصائد الوصفية و الفحلية و الغزلية و المضحكة و المبكية و هو في حالات من ثقل الهموم و خفة الجيب و اضطراب الأعصاب لايتسع معها لغيره أن يستكد قريحته لنظم بيت أو نثر عبارة.»(راشد الغيث، نسيمة. 2010م: 78)

فوفاة أمه لكمةٍ أخرى أصابه الدهر بها على رغم ما ذكرناه أعلاه من همّ و غمّ استوحى الخليل. فنظم بحقّها مقطوعة شعريّة بزفرة عميقة من شغاف قلبه تفيض حرقة و ألما من أعماق فؤاده و ذاته تحت عنوان " وَا أُماه":

يَا نعِمَةً عَظُمَت فَلَــم تَدُم وَكَذَا تَكـــــــــونُ عَظَائِمُ النِّعَمِ
عِشنَا زَمَانَا وَ هيَ قِسمَتُنا وَغَنَاؤُنا عَن ســــــــائِرِ القِسَمِ
حَتَّى عَدِمنَاها فَعِزَّتُنـــــا كَـالــذلِّ والإثرَاءِ كَالـــــعَدَمِ
وَاحَرَّ قَلبَنَا يـــا أَمَيمَة أن تَمضِي و يَمضِي السَّعدُ مِن أَمَمِ
ماذا أنا؟ وَلِمَن مُكافَحَتِي؟ وَعَلَامَ بَذلي قُوَّتِي وَدَمِـــــــي؟

(مطران، خليل. 1948م. ط3. ج3: 247)

فهكذا مطران رافق الحزن والتعب و الألم منذ بلوغه، فذاق أنواع الضغوطات السياسية التي أدّته إلى التنقّل بين البلدان و تلقبّه " شاعر الأقطار"؛ و إرهاقه من الحالات الجتماعية و المرض و مواقفه من أحداث مأساة الحياة؛ ممّا عاناه من إنكساره وفقده الحبيبة وعزلته من الناس لسبب صراعه الداخلي النفسي و ممّا ضاعف هذا الصراع فقده لوالدته، فأُرهق من الحياة لماعاناه مدى هذه المحطّات من حياته. إذن من الطبيعي أن نجد شعور مطران يستحسن المذهب الرومانسي و يحذي مناهجه، ليعبّر عن مافي داخله بصورة شعرية متأثرة من هذا المذهب على أسلوبه الشعري و عاطفته المتألمة. على مدى هذه المواقف و الأحداث يمتدّ العمر بالشاعر و على عاتق نفسيته ما تحمّل من ما سلف عليه. فـ«ضعفت قواه و ولّى شبابه، و أحسَّ بذلك الحزن الرقيق الذي يصاحب الشيخوخة الفانية عندما تُولي ظهرها للحياة، و تتوقّع الفناء الذي يتربَّص بكل حيٍّ؛... فينساب قوله في حزن رقيق كله شعور بسيط دافق، و بذلك يطالعنا وجدانه الصافي الذي كان يتعقَّد في عنفوان الشباب، عندما كان الخيال و العقل يلازمان كل خَلَجَة من خوالجه الوجدانية و يجعلا منها شعريّاً عميقا ».(مندور، محمد. 2017م: 22) و يبدو الشاعر يسأم و يحلّ عليه الملل، فيحسّ يحظره الموت شيئاً فشيئا، و حتى يرهق من الشعر حيث يتساءل: "ماذا يريد الشعر مني؟ " و ينظم قصيدة تتحدث و تعبّر عن حاله و هو طاعن في السن و متعب و حزين تحت عنوان، " الشاعر يوقع على وتره الأخير لحن الرضى و سكينة النفس ":

مَاذا يُريدُ الشِّعرُ مِـــنِّي؟ أخنَى عَلَيهِ عُـــــــلُّوُّ سِنِّي!
هل كَانَ مَا ذَهَبَـت بِهِ ال أَيَّام مِن أَدَبِـــــــــي و فَنِّي؟
أحسَنت ظَنِّـــــــي، واللَّيا لِي لَم تُوافِق حُـــــــسنَ ظَنِّي
وَ رَجَعتُ مِن سُوقٍ عَرض تُ بِضاعَتِي فِيـــــــها بِغَبنِ
أ فَكَانَ ذلِـــــــكَ ذَنبَهَا أم كَانَ ذَنبِي؟ لا تَسَلـــــنِي!
خَمَدت بِيِ النَّار الَّتـــــي رَفَعَت بِعَينِ العَصرِ شـــأنِـــي
هيَ شُعلَةٌ كانَـــــت تُثِ يرُ قَريحَتِي و تُثيرُ ذِهـــــنِي
أيَّامَ لِي طَرَبٌ وَ قَـــــل بِي مَوقعُ السَّهمِ الـــــــمُرِنِّ
بَا مَن يُحَمِّلُني تـــــــكا لِيفَ الشَّبَابِ ارفُق بِـــــوَهنِي
زَمَني تَوَلَّـــــى و الأُولَى عَمَرُوهُ مِن صَحبِي، فـــدَعنِي
وَلَّى الرَّبيعُ وَ جَـــفَّ عُو دِي وَانقَضى عَهـــــــدُ التَّغَنِي
وَ عَدِمتُ لَـــذَّاتِ الرُّؤى وَعَدِمتُ لَـــــــــذَّاتِ التَّمَنِّي

(مطران، خليل.1948م. ط3. ج3: 381)

فالقصيدة عبارة عن صورة أو شريط من أواخر حياة الشاعر و هو على وتره الأخير. فالعنوان عتبة لرؤية هذه القصيدة أو في الواقع سيناريو لحالة خليل مطران وهو مأيوس الحال؛ فكل بيت منها مرآة لمشهد هذا السيناريو الذي يمثل جوّ

الشاعر؛ مثلا: " ماذا يريد الشعر مني؟..." " ولّى الربيعُ و جفَّ عودي ..." و " و عدمتُ لذّات الرّؤى ..." . نجد في هذه الأبيات و غيرها من القصيدة رؤية منحدرة مطأطأة لذات الأديب و اختلافه في السياق و مستواه الشعري بين شبابه و شيخوخته.

أما الحزن يستولي على مطران و يغزو ديوانه، فيخلق لا إراديّا موتيفا يعبّر عن ذلک الحزن الذاتي حيث تصبح هذه الظاهر نافذة للدارس و الناقد لكشف عن جوّ و مواقف الشاعر و هواجسه. أو بعبارة أخرى لمطران« أسلوب آخر في التعبير عن مشاعره و أحزانه و هو الترديد و التكرار(للعنصر الفعال و الأساسي) و بهذا الأسلوب زاد لوعة فيما كان يعاني في الحب فهو بهذا الأسلوب لايبدو أكثر نجاحا في إسهام قارئه في عواطفه و في الجوّ العاطفي الذي كان يعيشه فحسب بل يضمن لشعره الخلود، ثم يقوم بخدمة كبيرة للشعر العربي فيردّ إليه مادته المفقودة ألا و هي الوحدة العضوية و بذلک نفث فيه الروح و بعث فيه الحياة.» (زركوب، منصوره. 1436ق: 69)

النتيجة

نشأ مصطلح الموتيف في الأوساط الثقافية الغربية و من ثمّ تدريجيّا أخذ حيّزا في الأدب الأمم الأخرى و لاسيّما الأدب العربي. فلم يكن مجرد تكرار لفظٍ أو موضوعٍ، إنّما يستخدمه الأديب كأسلوب من الأساليب الحصرية البيانية، ليعبر عن رؤيته و أفكاره و صراعه النفسي بلغة شعرية عابرة و موثيرة لإحساس المتلقي؛ هذا من جانبٍ أما الجانب الآخرى فهو نقطة نفوذ للناقد الأدبي في عالم و جوّ الأديب للكشف عن شفرة الآثار الأدبية و الرؤية الحاكمة على هواجس الأديب.

نظرا لحياة الشاعر و ما أنتابه في محطّات حياته من حزنٍ و ألمٍ من عواقب الحب و الحالات الإجتماعية و السياسية و إصابته بالمرض و فقده لأمه؛ كل هذه الأحداث لها طابعا سلبيّا على نفسيّة الأديب وخوالجه النفسية، حيث أستحسنت نفسيته الإتجاه الرومانسي ليعّبر عن هذه الآلام بمراودته للطبيعة و مشاركتها في أحزانه. فكل هذه الأحزان الذاتية التي تنشئ الصراع النفسي في كيان الشاعر في الواقع خلقت موتيفا لا إراديّا في آثار الشاعر حيث يرنو من خلاله الناقد الأدبي بتسلط الأضواء من أسلوب الموتيف المهيمن على هذه الآثار و كشف الصورة الحقيقة وإنفعالها في ذات الأديب.

المصادر

1_ إبراهيم يوسف، خالد.(2006 م). مغالطات في حياة خليل مطران و شعره، ط1، دارالنهظة العربية

2_بلاوي، رسول و آخرون.(1393ش). موتيف استدعاء الشخصيات التراثية في شعر يحيى السماوي، مجلة الأدب العربي، العدد الأول، السنة السادسة: ص52

3_ بلاوي، رسول و آخرون .(2012م_2011م). موتيف النخلة في شعر يحيى السماوي، مجلة الدراسات الأدبية، العدد 76و 77و 78، خريف و شتاء و ربيع 2012م_2011م: ص67

4_ تقوي ، محمد؛ دهقان، الهام (1388 ش). موتيف چيست وچگونه شكل ميگيرد؟، مجلة نقد أدبي، جامعة تربية مدرس، العدد 8: ص10

5_ جحا، ميشال.(1981م). خليل مطران " باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث"، ط1، دار المسيرة، بيروت

6_ حريرچي، فيروز؛ محمدي مزرعه شاهي، مجتبى.(1389ش). مظاهر رمانتيک در اشعار خليل مطران، فصلنامه تخصصي علوم أدبي، سال سوم، شماره 5، دانشگاه تهران: ص18

7_ حسين، طه.(2017 م). تقليد و تجديد، نشر مؤسسة هنداوي.

8_ خلف جاسم، طالب(2015م). المفهوم النقدي بين التجديد و الإشتغال في شعر خليل مطران، مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية و الإنسانية، العدد20، جامعة بابل: ص192

9_ درويش، أحمد؛ ترجمة صالح، رشا(2010م). خليل مطران المسيرة و الإبداع، ط1، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت

10_ راشد الغيث، نسيمة(2010م). خليل مطران في مرآة النقد الأدبي، ط1، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت

11_ الرمادي، جمال الدين.(1972 م). خليل مطران، شاعر الأقطار العربية. ط2. دار المعارف بمصر

12_ زركوب، منصوره؛ سليمان پور، زهرا(1436ه). المرأة في شعر خليل مطران، مجلة بحوث في اللغة العربية و آدابها، العدد11، جامعة إصفهان: ص69

13_ شكيب أنصاري، محمود(1394 ش). تطور الأدب العربي المعاصر، تاريخ ونصوص، ط7، جامعة شهيد تشمران، أهواز

14_ صايل حمدان، محمد(1991م). قضايا النقد الحديث، ط1، دار الأمل، الأردن.

15_ عبّاس بشير، بشير؛ مؤمن صادق، محمد(2009م). الصورة البيانية في شعر خليل مطران، جامعة أم درمان الإسلامية، السودان

16_ عبد الله البعول، إبراهيم؛ عبد المجيد فالح، يوسف(2011م). صورة المرأة في شعر خليل مطران، كلية اللغة العربيّة و آدابها، جامعة مؤتة، الأردن

17_ قادري، فاطمة؛ اسكندري، الناز(1393ش). دراسة مقارنية بين أشعار خليل مطران و فريدون مشيري، كلية اللغة و الأدب، جامعة يزد: ص58

18_ القط، عبد القادر(1988م). الإتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، نشر مكتبة الشباب

19_ محمدعويضة، كامل محمد(1994م). خليل مطران شاعر القطرين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت

20_ مطران، خليل. (1948م). ديوان الخليل، نظم خليل مطران. ط3. ج1. دار مارون عبود. بيروت

21_ مطران، خليل . ط3. ج2. دارمارون عبود. بيروت

22_ مطران، خليل . ط3، ج3، دار مارون عبود، بيروت

23_ مطران، خليل (1949م). ط2، ج1، دار المعارف، القاهرة

24_ مندور، محمد(2017م). محاضرات عن خليل مطران، نشر مؤسسة هنداوي

25_ موسى، خليل.(1999م). خليل مطران، شاعر العصر الحديث. ط1. دار ابن كثير. دمشق

References

1_ Ibrahim yousef, khaled.(2006). The fallacies in khalil mutran's poetry, first edition, al_nihzah_ alarabiya speard.

2_ Ballawi, rasoul, et al.(1393s). Heritage personalities motif in yahya_al_samawi's poetry, arabic literature magazine, no1, sixth year: p52.

3_ Ballawi, rasoul, (2011_2012). The palm in yahya_al_samawi's poetry, literary studies magazine, (no76,77,78), autumn and winter and spring(2011_ 2012), p67.

4_ Taghawi, mohammad; dehghan, elham(1388s).what is the motif and How it is formed?, literary criticism's magazine, university of education teacher, no8: p10.
5_ Guha, michel.(1981). Khalil mutran's "Renewal in modern arabic poetry", first edition, masirah spread, beirut.
6_ Harirchi, firouz; mohammadi mazrae shahi, mojtaba.(1389s). Romanticism in khalil mutran's, literary sciences magazine, third year, no5, tehran university: p18.
7_ Hossein.(2017). Tradition and renewal, Hindawi spread.
8_ Khalaf jasem, taleb.(2010). The critical concept between the renewal and operatiin in khalil mutran's poetry, the basic education for educational and human sciences magazine, no20, babel university, p192.
9_ Darwish, ahmad; the tranclation saleh rasha, khalil mutran's creativity, first edition, abdulaziz saud albabdin prize foundation for poetic creativity, kuwait.
10_ Rashid ghayth, nasimah.(2010). Khalil mutran in literary criticism, first edition, abdulaziz saud albabdin prize foundation for poetic creativity, kuwait.
11_ Jamal al_din, al_romadi.(1972).kalil mutran is a poet of the arabic countries.second edition, mearif speard, egybt.
12_ Zarkoub, mansoreh; soleymanpour, zahra.(1436). The woman in the poetry of khalil mutran, research in the arabic language and literature magazine, no11, esfihan univeesity: p69.
13_ Shakib ansari, mahmoud.(1394s). The development of contemporary arabic literature" history and texts", seventh edition, shahid chamran university, ahvaz.
14_ Sayil hamdan, mohammad.(1991). Lssues of modern criticism, frist edition, amal speard, jordan.
15_ Abbas bashir, bashir; mo'men sadegh, mohammad.(2009). Graphic image in khalil mutran's poetry, om darman islamic university, sudan.
16_ Abdollah albaoul, ibrahim; abdolmajid faleh, yousef.(2011).the woman in the poetry khalil mutran, the college of arabic language and literature, mota university, jordan.
17_ Ghaderi, fatemah; eskandari, elnaz.(1393s). A comparative study of the poems of khalil mutran and fereydoun moshiri, college of language and literature, yazd university: p58.
18_ Alghat, abdolghader.(1988). Affective trend in contemporary arabic poetry, shahab library.
19_Mohammad awizah, kamrl mohammad (1994).khalil mutran international poet, edition1, science books library, beirut.
20_ Khalil mutran.(1948). Diwan alkhalil" khalil matrun poetry", vol1, third edition, maroun abood, beirut.
21_ Khalil mutran edition3, vol2, maroun abood, beirut.
22_ Khalil mutran edition3, vol3, maroun abood, beirut.
23_ Khalil mutran (1949). Edition2, vol1, alma'ref, cairo.
24_ Mandour, mohammad.(2017). Lectures on the poetry of khalil mutran, hindawi.
25_ Mousa, khalil.(1999). Khalil mutarn poet of the modern, edition1, ben kathir speard, damascus.